الى النجف الأشرف

بقلم وداد سكاكيني

لنجف العراق روعة وحرمة جمعتا بين وقار العلم والعلماء على المصطلح القديم وهيبة(١) الارض التي حملت تاريخاً دامياً ملفلفاً بالحداد ، فإن إمام المروءة والبلاغة في العروبة والاسلام علياً بن أبي طالب قد رقد في ثرى هذه البلدة مطعوناً بغدر لعين يتجافى القلم عن ذكره لئلا يضاف الى ذكر الامام الشهيد .

ولقد اتجهنا الى هذه البلدة على شوق ولهفة ، بدعوة من المحافظ الفاضل بعد أن مررنا بالحلة التي وصفها الشاعر الفارسي صفي الدين متغنياً بها :

من لم تر الحلة الفيحاء مقلته فإنه في انقضاء العمر مغبون

كنت في الطريق أردد بيني وبين نفسي أبياتاً لهذا الشاعر ، شاعت في بلاد العرب وعلى ألسنة الكبار والصغار في الهبات التحررية والوطنية ، لأنها صورت سجايا العرب ونضالهم وطبيعتهم واعطت كل صفة لوناً ، ولم يكن صفي الدين يدري أن مستقبلا كبيراً سيطل على الأمة العربية في القرن العشرين تتخذ فيه تلك الألوان رمزاً لأعلام الوطن والسيادة وهي الاسود والاخضر والابيض والاحمر في قول الشاعر :

بيض صنائعنا خضر مرابعنا سود وقائعنا حمر مواضينا

ومضينا الى النجف يحدونا شوق الى إمام العرب الذي طبع لغتهم بطوابع بلاغته وكان الفتى الاول في الاسلام واقرب الناس الى رسوله نسباً وعلماً وجهاداً .

وعند مدخل النجف تلقتنا من بعيد لافتة للنظر بضرورة الحجاب للنساء ، فإن التبرج والسفور لا يسمح بهما للغريبات والمقيمات على السواء ، فدارت العباءات على المدعوات قبل أن نقترب من جامع الامام ودخلنا بخشوع وصمت ساحة واسعة تحيط بها ابنية عديدة وفي المشهد منارتان شامختان على جانبي سطحه وقد غشتهما صفائح من الذهب رقاق متوهجة وابواب المسجد مصفحة بالذهب ومن أعلى السقوف تدلت المصابيح والثريات وفوق المرقد وفي زواياه تيجان للملوك وكبراء من الهند وفارس ، وعلى الحيطان نفائس السجاد والالطاف من هدايا المعتزين بحرمة المقام .

---

(١) من كتاب « روعة بغداد » لصاحبة المقال وقد انجزت تأليفه وستقدمه للمطبعة .

والاقفاص المحيطة بضريح الامام ومراقد آل البيت قد صنعت قضبانها ومشابكها من الفضة وبعضها مطلي بالذهب ، واي زائر عربي لهذه المشاهد لا بد ان يعود بالخاطر من فوره الى تاريخ اهلها الذين ضمتهم من الصالحين والشهداء فتأخذه الروعة من هول حوادثهم ونكباتهم لا مما يبهره من فخامة الزينة وبريق الطلاء والقناديل ، وزخرف القاشاني والخزف وغيره مما يدهش له الاجنبي الذي تتاح له الزيارة فيعجب لتألق المرايا والكريستال الذي يتلألأ في السقف ويطيل النظر الى المآذن والقباب دون ان يتسلل بشعوره ومحبته الى هيبة الراقدين من آل البيت والصالحين .

وأما الوقار العلمي الذي شاع في النجف فيتجلى في المعاهد والحلقات الدراسية ودور المعرفة والعبادة ، وهي عديدة مشهورة .

ولقد كانت فكرة التحصيل والتعليم ، في المساجد الجامعة معروفة منذ أيام الامويين والعباسيين ، فلما استشهد الامام علي وأنزل في مرقده الاخير حيث ضمه هذا المقام الكريم كان بصاحبه رمزاً للعلم والتحصيل والعكوف على البحث والتأليف .

ومن أولى من إمام البلغاء والعلماء وكان باباً لمدينة العلم كما جاء في القول المأثور بأن يكون مقامه النور الفكري والثوري الذي شع في ارجاء العرب والاسلام حتى غدت مدينة النجف منارة للثقافة الاسلامية في الحديث والفقه واصوله ومدرسة كبرى للعربية في قواعدها وفلسفتها وادبها وبيانها .

وكان حب الإمام والتعلق بمآثره وفضله حافزاً قوياً في شيوع الحياة العلمية ومجاورة المقام الذي يشد شيعته واحبابه اليه بالدراسة والتمكن من المعرفة التي احاط بها الإمام فأقيمت الابنية حول مرقده ودارت الحلقات التي جمعت طلاب العلم حول العلماء الذين وهبوا حياتهم وجهادهم للعقيدة التي حملت النور والايمان وألّفت بين القلوب وكان تمكنهم من العربية والفقه الاسلامي يستهوي النفوس ، فأقبل عليهم كل ظامىء للمعرفة تواق لبلاغة الإمام وبيانه ومناقبه .

وتاريخ المجاورة العلمية في هذا الشعاع الاسلامي الكبير ، يرجع الى عصر بني العباس ثم بني بويه ، فقد نهض بعض الخلفاء والكبراء من العراق وفارس بالبناء والتجديد لهذا المعبد الذي انشئت حوله المساجد والمعاهد وزوايا الصوفية للشيعة وحلقات المدرسين .

وكان عضد الدولة بن بويه الذي حكم فارس وملك الموصل وبلاد الجزيرة العربية واول من لقب في الاسلام شاهنشاه يرعى هذه الحلقات العلمية حول المشهد ويأمر بتوزيع المال على الطلاب والفقهاء من الفقراء والمحرومين ، وقد لمع اسم كبير العلماء في ذلك الحين الشيخ

الطوسي الذي درس على السيد المرتضى صاحب الأمالي ، وكان المرتضى يجري عليه معاشاً شهرياً كما يجري على تلاميذه كل عام .

ولهذا الرائد الكبير مراجع قيمة في التشريع الاسلامي ومؤلفات يعود اليها الفقهاء والعلماء في التدريس والتصنيف .

ولم يقتصر المؤلفون من علماء النجف وفقهائها على كتب التشريع والتفسير وإنما كتبوا في قواعد العربية وخصائصها وفلسفتها ، وقدموا للقراء والطلاب مؤلفات عديدة في الادب والبيان والاصول .

وكانت معاهد النجف تتسع وتتجدد على ترادف الزمان وبظهور السراة والحكام الذين بذلوا الغالي والنفيس لهذا المعبد الكبير الذي غدا محجة للقريب والبعيد بل تحويل الجامع الى جامعة علمية أخذت تؤدي رسالتها على طريقة اهلها لابناء العراق وغيرهم من الشيعة ، فكانوا يأتونها من ايران والشام ويتجه اليها طلبة العلم من جبل عامل في لبنان .

والدراسة في النجف الاشرف مفتحة الابواب متعددة الحلقات يمضي الطالب فيها سنين طوالا دون ان تلاحقه قيود او حدود عرفت بها الجامعات الدينية والمدنية في زماننا .

وكثير من الموهوبين في الادب واللغة والمتمكنين من الفقه والتفسير والاصول لايقنعون بأعوام محددة يقضونها في ظلال النجف وبين ايدي الاساتذة الذين تلقوا عنهم ما حببهم بالدراسة والتحصيل .

وطريقة المجاورة الطويلة والقصيرة تتجلى في سبيل العلم وحب الامام الذي كان في مقامه شعاعاً للحكمة والبلاغة والصبر على التحصيل والجهاد .

وقد خرّج النجف طوائف من أعلام العربية والفقه والبيان حملوا رسالته في ارجاء بلادهم وعاد منها الذين اغتربوا من آفاق بعيدة مزودين خير زاد من الثقافة الاسلامية والعربية فكانوا في المدن والقرى مشاعل هداية وتبصير وتعليم .

وقد انطلقت شعلة بعد شعلة من صوب النجف وأضاءت في دمشق وبيروت وجبل عامل في جنوبي لبنان ، متجلية في المجتهد الاكبر السيد محسن الامين ذي المآثر العديدة في هذه البلاد ومن قبل في العلامة السيد حسن يوسف مؤسس المدرسة العاملية في النبطية حيث تخرج على يديه كثير من العلماء ، ولعل جبل عامل في لبنان اكثر البلاد الاسلامية اتصالا بالنجف ، فان اعلام الفقه والفكر والادب من العامليين قد خرّجتهم الجامعة النجفية وزودتهم برسالتها ومعرفتها ، فكان منهم الشعراء والفقهاء والكتاب من آل صادق وشرف الدين ومروة ومغنية والامين وشرارة والفقيه والزين وغيرهم .

ولو كتب للنجف ان يمتد ظله على آفاق ابعد من ايران ولبنان وغيرهما من الاقطار الاسلامية والعربية لكان لعلمائه وثقافتهم ومؤلفاتهم اثر يترامى عبر الحدود التي انحصرت في آفاقها ، ولا بد ان يكون المسؤولون عن معاهد النجف وجامعتها قد ادخلوا بعض التطور والتجديد على الدراسة والتأليف كما صنع الازهر في مصر ومن اولى بهم بالعمل على التقريب بين المذاهب وتصفية التقاليد مما علق بها من التعصب القديم .

على ان المتفوقين من الكتاب والمحققين والشعراء الذين انجبهم النجف وجددوا ثقافتهم بما أدخلوا عليها من الفكر العالمي الحديث ، قد عرفتهم الصحافة العربية بآثارهم التي قيض لها أن تنطلق من ارجائهم وتأخذ سبيلها الى القراء في بعض البلاد العربية .

وما كان عجبنا لينتهي حين استمعنا لشعراء من النجف في مؤتمر الادباء كانوا ابرز المتفوقين في المهرجان شعراً مطبوعاً وتعبيراً مكيناً وإلقاء جميلا باللهجة العراقية المحببة، منهم الاستاذان مصطفى جمال الدين واحمد الوائلي .

وكانت زيارتنا للنجف اشبه بمظاهرة علمية تمثلت فيها وفادة الفكر للفكر وحفاوة الأديب بالاديب وقد رافقتها عناية الحكومة العراقية بالادباء العرب والمفكرين في حقولها اليومية وموائدها السخية التي اعادت الى الاذهان ذكرى الجفان العربية والقصاع التي كان يغالي بها بنو النجار اخوال الرسول «ع» في المدينة المنورة .

ومهما اطلت الكلام على النجف وروعة مجاليه ومعاهده، فإن وراء الكلام نبعاً لايغيض لدى الاحباب ، وكيف يغيض في النجف الاشرف وفيها كل ما يوحي بالادب والحكمة ويشيع التجلة والروعة ، وقد عرفنا من بعيد بيوتها العلمية التقليدية كابراً عن كابر كاشف الغطاء والجواهري والشبيبي والحبوبي والشرقي وبحر العلوم وغيرهم ممن انبتت بيوتهم مواهب في الشعر والنثر وتوارثت الاصالة والجزالة في التعبير والتفكير ، وفي اكثر البيوت العلمية النجفية مكتبات كبرى فيها المخطوط والمطبوع بالمئات والالوف .

على ان المتحدث بروعة النجف وتأثيرها في الحياة العلمية والادبية ينبغي له ان لاينسى التنويه بوطنية النجفيين وزعمائهم في الثورة على الاحتلال الاجنبي ، وجلهم من العلماء الذين كرموا انفسهم ووطنهم بالجهاد من اجله ولم يتخذوا العلم وسيلة للمكاسب والظهور .

ولولا الشوق الى مقام الحسين بطل كربلاء لطال استماعنا للشعر والبيان في حفل النجف وعلمائه الكرام ولامتد تطوافنا في بعض الاسواق المسقوفة والمكتبات الحافلة ، وقد تركنا النجف الاشرف معتزين بزيارة الإمام صاحب المقام الذي عزز مكانتها واضفى عليها روعة من مجده وتقواه .

دمشق — وداد سكاكيني